« التجديد العصري من غير ثورة » (*)

تجربة لبنانيـة

تأليف ايليا اديب سالم

هذا كتاب اسمه اضخم من حجمه لا من محتواه ومادته ، فمحتواه واف ومادته مركزة . قامت بنشره جامعـة انديانا ، فـي سلسلة مركز بحوث تطور العلاقات الدولية ، وقد استطاع المؤلف في كتاب عدته مائة واربع وسبعـون صفحـة من القطع المتوسط أن يعالج العوامل التاريخية المؤديـة الى التجديد العصري وبخاصة العوامل التي برزت بعد استقلال لبنان ويستعرض المجتمع الفريد المؤلف من مختلف الاديان والمذاهـب والشيع والاحزاب ومحاولة التجديد العصري بسياسة عـدم التدخـل والتقييد ، وهو بتصويره للتطور الحضاري والتجديدي في لبنان من غيـر انقلابات أو ثورات دامية يحاول أن يوميء الى امكان الدخـول في روح العصر وتقنيته وثقافته من دون حاجـة لسفك دمـاء او اطاحة بنظام حكم ، والمشكلـة التي تجابه لبنان في نظره هي مشكلـة الحفاظ عـلى الحرية السياسية في مجتمع متعدد الالوان الجنسية والدينيـة وتعبئة موارده لمنفعـة الفئات المعوزة والمتخلفة اقتصاديا . وقداستطاع لبنان ان ينجح في هذا المضمار نجاحا غير منكر ولا مجحود ، ويـرى الاستاذ اديب سالم أن معظم زعمـاء لبنان وقادته قد درسوا فيمدارس فرنسية وتثقفـوا بالثقافة الفرنسية امـا في لبنان ذاته اوفي فرنسا .

ومنذ احرز لبنان استقلاله لم يحاول المسؤولون اجراء احصاء عام للسكان خشية ان تكون نتائج الاحصاء مثارا للنقاش حـول ترتيب التشكيلات السياسية التي يقوم عليهـا لبنان في الوقت الحاضر ، وتدل تخمينات ١٩٦٩ أن نفوس لبنان ثلاثة ملايين باستثناء اللاجئيـن الفلسطينيين ، وفيه اعلى كثافـة سكانيـة اذ تبلـغ ٢٦٨ للكيلومتر المربع الواحد ، وحوالي نصف السكان دون سن العشرين وهي ظاهـرة عامة في الشرق العربي ومن احدى مشكلاته ، اذ تضيف تبعات تعليمية واقتصادية جسيمة على كاهل المجتمع ، فتحول دون تطـوره بالسرعة المنشودة ، ويكاد تعدد الزوجات يكـون معدوما بين مسلمي لبنـان . واكثر الشعوب العربية انتشارا خارج الوطن العربي هم اللبنانيون ، فنحو من مليوني لبناني عربي يقطنون في بلاد اجنبية وهم يسهمون بصورة مباشرة في اثراء وتمديـن لبنان باستمرار ، ويقيم ثلث هؤلاء المهاجرين في الولايات المتحدة ، واكثر من الثلث في اميركـا اللاتينية وما تبقى منهم موزع بين افريقيـا واستراليـا ونيوزيلندة واوروبـا ، ويعـود الكثيرون من هؤلاء ، لا معظمهم كمـا يزعم المؤلف ، الى بلادهم بعـد ان يحصلوا على رؤوس اموال كافيـة ليستغلوهـا في بـلادهم ، فيثرى احدهم بعد ان كان فقيرا ، وقد يثرى اللبناني دون ان يهاجر بفضل اقربائه المهجريين الذيـن يبعثون اليه بالمعونات المالية .

ويكـاد لبنان يكون نسيج وحده في اشياء كثيرة ، فقد خلق لنفسه تركيبا سياسياخاصا بوسعه ان يفسح مجالا للتغيير وان يدخل التجديد التطوري المعتدل والاصلاحات المعتدلة التي لا تتم بالتطرف بحيث لا تزلزل اسس الكيـان السياسي الذي يسيطر عليه الزعماء والنوادي الخاصة التي لهـا مصلحة في التجديد العصري بدرجات متباينة ،وفي رأي المؤلف ان مصلحة الزعماء في ذلك براغماطيقية اي وفق المذهب العملي او الذرائعي الذي يقيس الامور حسب نتائجها العملية فعليهم ما داموا يبغون البقاء في القمة ان يبدوا شيئا من التلهف للترضية قدر الامكان والحاجة ، ولا سيمـا فيمـا يتعلق بالمنشقين او بمن يتوقع منهم القيام بحركات تهدف الى تغيير الاوضاع .

اعتقـد ان تخصيص هذه السياسة بلبنان تجن على الواقع ، اذ تكاد تكـون في كل مكـان وزمـان . فقـد روي ان احد الاعـراب اعترض على رسول الله (ص) في حصته من الغنائم قائلا : مـا انصفـت يا رسول الله ، فاجابه محمد (ص) بكل ما عرف عنه من حلم واتزان وحب للعدالة والشورى او مـا يسمونه اليوم بالديموقراطية : « ويحك ان لم انصف فمن ينصف ؟ » ثم التفت الى الامـام علي (رض) قائلا : « يا علي ، اقطع لسانه » فشهر علي سيفه ، فقال له الرسول ما لهذا اردت ، زد في عطائه ليسد عوزه .

وباعتقاد الاستاذ المؤلف انه اذا لـم تحدث ازمة سياسية تجتاح الشرق الاوسط برمته بما فيه لبنان فتشتت المكاسب التي احرزهـا خلال القرنيـن الاخيريـن بالمحاولات الفرديـة الخاصة وبالمساعـدة الحكوميـة المحدودة فبوسع التطـور العصري في المستقبل ان يستمر بخطى ثابتة متصاعدة ، غير ان بمقدور العملية ان تزيـد في تعجيلهـا واسراعهـا باصلاحات واسعـة النطاق ضمـن مفهوم التكوين السياسي الحالـي والنظام الاداري الحالي القائم .

ويضيف الاستاذ اديب سالم : اما اذا حاولنـا ان نغير الهيكل السياسي والاداري جذريـا فكاننـا بذلـك نفتـح صندوق باندورا الاسطوري الذي لا تعرف قوى الخير او الشر التي ستنطلق منه ، والى ذلك فانـا لا استطيع ان اتنبأ ببديل يبرر مثل هذه المغامرة .

ان ما يفهمه القراء انا احدهم ان الاستاذ الكاتب يقصد بالتجديد العصري في لبنان جميع مرافق الحياة وليست السياسة بمعزل عنها ، فقد أخذ الهيكل العام للبنان يزداد مرونة وتماثلا مع السياسة العربية العامة في الايـام الاخيرة مع التفتح والتحرر جهد الامكان من الطائفية التي كانت آخذة بخناقه في فترة من فترات حياته السياسية ، الا ان المؤلف لا يتطرق الى شيء من ذلك ، ولعل الكتاب الذي وصلنا مؤخرا حاملا تاريخ ١٩٧٣ لم يكتب في ضوء التطورات المبشرة بالخير فـي لبنـان ، وان الفقرتين الاخيرتين من الكتاب هما بحاجة الى مزيـد من الايضاح اذ لا يمكننا ان نتصور انسانا سويا ينمو لحما ودمـا وطولا وعرضا ويبقى هيكله العظمي على نحـو ما كـان عليه يـوم ولدته امه. ومن يستطيع ان يزعم ان اي نظام في العالم هو خير الانظمة ولا يحتاج الى تطـور ولو كـان بطيئـا ومن غير ثورة ؟

لقد حاولت ان ازيل شيئـا من غموض النص الانكليزي جهد الامكان بان اقرأ ما بيـن السطور كمـا يقولون ولا ادري مـا اذا كان التوفيق قد حالفني في محاولتي هذه ام لا ، فالذي اعلمه من قراءاتي المتراصة وتتبعي للانباء العربية والعالمية ان الشقيقة العزيزة لبنان آخذة بالاتجاه صوب ترجيح الكفاءة الفردية على اعتبارات الفئة أو الطائفـة التي ينتمي اليهـا صاحبهـا .

انا لا اريـد ان اقلل من قيمة الكتاب الذي بين يدي فقد قرأتـه قراءة مستمتع مستفيد ، فقد كـان المؤلف موفقا في منهج بحثه الموزع على ستة فصول وان كان متعبـا في طريقته الطريفـة في الجمع بيـن الهوامش والمصادر على صعيد واحد،في فصل اضافي في آخر الكتاب، وان المؤلف ليهنأ على صبره وجلده وجمعه للكثير من الاحصائيـات

(★) Modernization Without Revolution . Lebanon's Experience . By Elie Adib Salem . Indiana University Press . Bloomington & London ,

والجداول وكذلك الهيكل الايضاحي المتسلسل للدولة والوزارات والدوائر والمجالس المرتبطة بها في الصفحتين ٧٨ و ٧٩ وارتباط مختلف الهيئات المتفرعة من وزارة التخطيط العام في الصفحة ١١٣ .

وكنت اود عندما اشار الى المنتديات المتنفذة في لبنان والمؤثرة في تطوره وتجدده الا يقذف بالندوة اللبنانية التي اسسها ميشيل اسمر في فصل الملاحظات في اخر الكتاب ، وانما يدرجها في صلب الكتاب ، فانها باعترافه هو من اهم النوادي اللبنانية التي تدعم الى حد ما دعما ماليا من قبل الحكومة اللبنانية وقد زودت الندوة المذكورة المفكرين اللبنانيين لفترة تنوف على العقدين بمجال رحب واسع لتحليل المجتمع اللبناني وضع اسس نماذج ومخططات لتطوره ، وقد اصدرت العديد من الكتب والمنشورات في مختلف مظاهر التجديد العصري للبنان، ولا سيما كتاب رينيه حبشي : « حضارتنا على المفترق » المطبوع ببيروت سنة ١٩٦٠ وسلسلة المحاضرات المتعلقة بمظاهر لبنان الادارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، المطبوعة سنة ١٩٦٥ بعنوان (لبنان)، كما ان بعض الجداول والاحصائيات المهمة موضعها في متن الكتاب لا الهوامش المحشورة بعضها فوق بعض في ختام الكتاب، ولا سيما اذا كان جدولا احصائيا مهما كنسبة قراء الصحف في الاقطار المختلفة، فقد ذكر انها ٥٠٦ بالالف في الاتحاد السوفياتي وهي الاولى في العالم في هذا المضمار و٣٢٦ بالالف في الولايات المتحدة ومرتبتها بين قراء الصحف ١٣ اما لبنان فالنسبة فيه ٩٧ بالالف ومرتبته ٤١ ومن الطريف ان نذكر ان النسبة في مصر ٢٠ بالالف وفي الاردن ١٢٨ بالالف وفي فولتا العليا ١٠ بالالف وانا عاتب عليه لانه اهمل العراق في هذه المقارنة مع ان نسبة قراء الصحف والكتب والمجلات فيه عالية اذ يكاد يلتهم معظم ما تصدره لبنان ومصر معا ، مع ذلك فقد استدرك فذكر العراق في جدول مقارنة توزيع الاطباء بين مختلف الاقطار ، ولكيما يفيد القارىء فائدة تامة من هذا السفر الجديد فانا ناصحه بان يلقي نظرة وان كانت عجلى على فصل الملاحظات الاخير في الكتاب قبل ان يشرع بقراءته والا فسيضطر لقراءته مرتين على نحو ما فعلت انا.

اكسفورد — د . صفاء خلوصي

دمـــــوع السقف الحجري

مجموعة قصص بقلم وديع اسمندر

منشورات الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين

بعد ان انهيت مطالعتي الدقيقة لمجموعة وديع اسمندر القصصية الجديدة ، والتي صدرت عن الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين خلصت الى نتيجة مؤكدة مؤداها ، ان المؤلف الذي يعتبر الان من ابرز الوجوه في عالم القصة القصيرة السورية ، لم يقدم لنا في مجموعته هذه « دموع السقف الحجري » سوى شخصيات مأزومة ، في تصرفاتها وافعالها واقوالها ، ومبتورة ، في الوقت عينه ، عن اسباب ودوافع وعوامل ازمتها الكامنة ، بكليتها ، وان بطريقة مباشرة او ملتوية، في مجمل علاقاتها واوضاعها الاجتماعية ، اي ان الكاتب لم يقم بالبحث عن جذور ازمات شخصياته ، ولم يجهد نفسه بسبر تفاعل هذه الاوضاع والعلاقات في ذوات شخصياته . ومن هنا ولدت هذه الشخصيات ، بالاساس ، وكانها دمى تلعب ادوارها على خشبة مسرح العرائس ، وتحركها خيوط غير منظورة معلقة بيدي الكاتب ،وحسبما شاء صانعها ، فلا روح ولا تطور عضويا ولا تماسك ، وان كانت ايضا لا تفعل شيئا سوى انها تمثل الفصل الاخير من مسرحية طويلة ،سبقته عدة فصول لها اهمية بالغة في التمهيد امام وعي القارىء وادراكه لكيفية عملية النضج التي قادت الى هذه الخاتمة الحتمية التي صورها المؤلف ، ولقد انعكس هذا البتر والفصل للشخصيات ، عن مكوناتها الاجتماعية ، بالتالي على المعمار الفني للقصص ، فاسقطت الكلمات اسقاطا على شفاه الابطال ، كما فقدت محورها واثرها النفسي ، وتراخت التداعيات والمنولوجات الداخلية ، على الرغم من قوة وشراسة الازمات التي تعصف بتلك الشخصيات ، وهذا ما جعل الحدث يتجمد في لوحات تجريدية ليس لها ارضية او خلفية يستشف منها القارىء مدلولات يرمي اليها الكاتب .

ان هذا يلقينا في مشكلة اكبر ويضعنا امام سؤال تولد في الفترة الاخيرة ، من بعد نشر عدة مجموعات لقاصين شبان : لماذا هذه الموجة من الكتاب الشبان الذين يحذفون مكونات شخصياتهم الاجتماعية ، النفسانية ، ويقدمونها وكانها معتلة وظائفة في الهواء ؟ لدينا شواهد كثيرة ، والجواب يحتاج الى دراسة مطولة ولكن لنلتق التبعة الاولى على التعب الذي يصيب هؤلاء الشبان ويعجزهم عن متابعة تنمية شخصياتهم ، وهذا نابع من تلهفهم الحار على الانتاج والنشر السريع ، بدون ان يعطوا للمقومات الفنية والمقدمات الضرورية التي تغزر وتخصب المضمون حقها التام .

ونستعرض الان بعض شخصيات وديع اسمندر ومواقفها التي تبدو مرتجلة للاسباب التي اشرنا اليها ، على الرغم من مقدرة الكاتب على خلق التوتر النفساني الظاهري في اعماله القصصية .

في قصته الافتتاحية « المشرحة » يعرض الكاتب امامنا شخصية مريضة لطبيب حرمته جمعية الاطباء من ممارسة عمله . اما لماذا هذا الحرمان ، فان القاص لا يلمح لنا ابدا ، ونرى الطبيب يعوض كبته بممارسة شذوذه مع جثث موتى يسرقهم له خادمه ، ونتحسس ان ازمة الطبيب وغرابة اطواره غير معلومة الاسباب ، ولا تقنعنا بضرورتها، الا ان هذه الازمة تتفاقم حتى تصل الى حد مجامعة الموتى والتلذذ بتقطيع اجسادهم بعدها ، حتى يحصل الطبيب يوما على جثة تشبه امرأة رفضته كزوج ، وعندما يبدأ بمداعبة الجثة كعادته ، يراها تقف وتمشي لتذهب الى الشباك ، والمشرط ما زال مغروسا في صدرها ... وهكذا تنتهي القصة وطولها لا يتجاوز عدة صفحات من القطع الصغير ، واذا كانت مهمة الناقد تشريح جثمان القصة ، لمعرفة عللها الخفية التي تدور حولها العلاقات ، فاننا لا يمكن ان نمسك بدافع هذه الشخصية ، لان الكاتب فصل الراس عن الجسد ، واخفى الجسد مع علمنا بان مكمن الداء فيه ، وتعني ان مرض شخصية الدكتور لا يرجع الى حالة طارئة ولكن الى عقدة ما نمت في ظروف محددة ومجتمع ما ، ربما تحرم فيه العقائديات البالية افعالا كثيرة منها مثلا منع الطبيب من تشريح الجثث ، وتقف بذلك موقف الضد من اماله وحلمه بتطوير علم الطب ومن ثم يضطر الى العمل في السرحتى يصاب بهذه الحالة التي لا تحتمل من جنون الوحدة والعزلة .

اما القصة الثانية « الانتقام » فهي تتحدث عن شخصية اخرى تعاني من عقد نقص مركبة تتحول الى انهزامية شديدة ، رجل يكره اخاه الذي من امه فحسب ، لان هذا الاخ كان دائما ينال الافضل، ويحظى بحب الناس واعجابهم بينما الاخر ينبذه الجميع ، وتتراكم هذه الامور على الاخير الى حد يتمنى فيه قتل اخيه ليثبت جدارته وقدرته على الفعل ، ولكنه لجبنه المعهود يفشل ، واخيرا يحقق رغبته المكبوتة

بان يطلق النار على اخيه ، بعد ان مات هذا وووري الثرى..هل نفس هذا الرجل توتره ؟ لا يريدنا الكاتب ان نصل الى هذه النتيجةبالطبع، والا تلاشى معنى القصة ، لقد مر الكاتب على اسباب ودوافع هذه الشخصية مرورا سريعا وباهتا ولم يبلورها في اي حدث يجعلنا نوقن بمكامن العلل تماما ، ونقف على شاطيء التساؤل فقط : اهذه العلل ناتجة عن التربية البيتية ام الى فعل الحياة الجبري الذي يتجسد بوجوب تزوج الام من رجل آخر غير زوجها ابي ابنها الاول ، في مجتمع ذي علاقات تحدد نوعية واهداف مثل هذا الزواج المنفعي؟ اننا لا ندري .

وفي « الحصاة والظل » فاحدهم عبد .. عبد لمن ، ويخدم من، القاريء لا يدري ، وربما هو عبد لنفسه ، يتنزه ويتصيد هو وسيده المعدوم السمات ، ويظن ان سيده والموت يجتمعان ضده في الخلاء ، وكل مرة ، اقصد كل دقيقة ، يتمنى هذا الشخص ان يتلاشى كما يتلاشى ظله مع غروب الشمس . هذه الحالة ايضا حالة ازمة ،او على الاصح نهاية لتطور ازمة فقدت عناصرها ولكنها تتناسل من جراء تواجه العبد والسيد ،والحكم فيها يرجع الى نفس هذا العبد ، سواء اكان هو السيد ام العبد ، لان السيد لا يستطيع سوى ان يبقى كما هو سيدا ، بينما العبد يظل عبدا او يثور ليصبح ثائرا ... ولكن لماذا هذه الازمة واين نبتت فروعها وكيف ؟ ان المؤلفيتقاضى عن كل هذا ويبدو انه تعب من محاورة الذات حيث يكتب نيابة عن شخصيته ، مسدلا ستارته عليهافي آخر القصة ، ثم انكفأ على وجهه، وهو يعانق ظله فوق صخور البحر المسننة .. وتظل القصة بلابداية ولا نهاية حقيقية ،ولا حكم .

اما القصة التي تحمل عنوان المجموعة « دموع السقف الحجري » ، فتقحمنا في تجربة مقلصة لرجل فقد وعيه خلالمشاركته في مظاهرة ، واعتبر ميتا ودفن على الاثر ، وعندما يستعيد هذا الرجل رشده في جوف القبر ، تنهار عليه افكار ثقيلة ، مجزأة ،وبينما تتداعى في عقله الباطني هذه الافكار يكون قد اصبح اقرب الى الجنون والهلوسة حيث ان رأسه مسمر في وضع ما لا يستطيع تحريكه وتتساقط قطرات ماء تتسرب من السقف الحجري على جبهته ، محدثة ارتجاجا ودويا في ذهنه ، وحين يلفظ انفاسه الاخيرة يتحشرج حلقه بكلمة واحدة .. اغبياء ، وكذلك هنا ندور نحن حول معقل المشكلة دون ان ندخل لنرى مكوناتها ، فلماذا انتهى الرجل الى هذا المصير ، ولماذا مشى في المظاهرة ؟ اننا لا نعرف ، وانصافا للكاتب نقول ان تلك الافكار التي كانت تنبثق من ذاكرة الرجل صيغت باحكامونمرس، اننا لم نلمس ان الكاتب قد افتعلها ، او جرى وراء كلمات يختارها عشوائيا ، اما النهاية فهي روتينية تماما ، وطرقها كتاب كثيرون ، انها بصقة مهزوم اصطنعها المؤلف ليقول ، ما لا يستطيع قوله بذاته ، على لسان شخصيته .

اما في « الفرسان » وهي اطول قصص المجموعة ويغلب عليها طابع الرمزية الفاقعة ، فاننا نجد ايضا فتاة خائفة ، حالمة مهيأة ، بلا اسباب مقبولة ، لان تصاب بفاجعة ، انها معتقلة في ايدي اعداء ، السجان يشتهي جسدها ويمارس سيادته عليها بجلدها ، تنتظر الخلاص وتحلم بان يأتي الفرسان لانقاذها يوما ما ، وربما يرمز الكاتب هنا بالسجن الى تقاليد المجتمع العربي التي تقيد النصف الاخر ، وربما تمثل الفتاة العربية ارضا عربية سقطت تحت الاحتلال ، ومع ذلك فان الرمز هنا فاقع بشكل لا نتبينه معه ،وبعد انتظار طويل يأتي الفرسان،يفتحون المدينة ويأخذون الفتاة التي تظن انها نجت من العار والذل ، ولكن تعود المأساة لتتكرر ... ان عيون الفرسان الفاتحين تتطلع الى جسدها ومحاسنها بنظرات همجية ثم يهجم عليها احدهم ويغتصبها ويتابع الباقي ما فعله اولهم ، ولكن تظلهي تحلم بفرسان آخرين ... في هذه القصة جهد الكاتب كثيرا لان يسير رموزه كما خطط لها مسبقا ، ووضعها في اطار جاهز ملقيا على تطورها العضوي والتاريخي والاجتماعي قيودا ، هذا التطور الذي لو استغله الكاتب لا بد وان يصب في نهاية حية وربما حتمية ، لان القوى التي تدفع بهذه الشخصية ليست ذاتية ولكنها موضوعية .

لذا جاءت الكلمات في كل هذه المجموعة متوترة تسقط كثيرا في ترهل غير مطلوب .

بعد هذا الاستعراض القصير لبعض قصص المجموعة ، نوجز ملحوظاتنا بثلاث نقاط :

اولا ـ مما لا شك فيه ان للكاتب مراسا يبشر بطاقة قصصية، وان كان الكاتب كثيرا ما يتدخل ، ويتسرع ، كحارس ليحد من حرية تنامي الشخصية ويقص عوامل تكوينها .

ثانيا ـ رغم التوتر الشديد الذي يسود معظم القصص تدهورت كلماتها الى نوع من الجمود القوالبي، بسبب من فصل الشخصيات عن ماضيها واثره .

ثالثا ـ انعكس ذلك على الشكل الفني فلم يستطع الكاتب استنتاج نهايات مقنعة فراح ينهي قصصه في جمل فاترة مختصرة .

هاني الزعبي

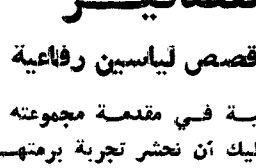

العصافير

مجموعة قصص لياسين رفاعية

يقول ياسين رفاعية في مقدمة مجموعته « العصافير » : « في القصة القصيرة عليك ان تحشر تجربة برمتها في صفحات معدودات ، واحيانا تأزم قصة قصيرة في مسافة شاسعة منالعبارات.»

مع هذا التحديد ، نلج عوالم ياسين رفاعية في « العصافير » فتبدو لنا اقاصيصه للوهلة الاولى ، محاولات هرب لانسان هذا العالم اليائس ، من واقعه المادي المتوحش الى عالم اخر من الوهم والعذوبة يحقق فيه اماله وامانيه . انها حنين الى طفولة بعيدة ، او محاولة بحث عن دنيا اكثر شفافية وصفاء .

واقاصيص المجموعة لا تندرج ضمن خط متنام ، وانما نستطيع ان نجعلها ضمن اتجاهات ثلاثة :

١ ـ الاتجاه الحلمي حيث يستخدم الكاتبالحلم كوسيلة للابانة عن مشاعر شخصياته المقهورة وامانيهم المكبوتة ، فتمتزج صورة الواقع بتوهم الاحلام ، وهذا المزج يحدث احيانا بطريقة ظاهرة ، واحيانا يتحد العالمان بحيث يصعب عليك التمييز بينهما .

في « رجل يحلم » نرى رجلا متعبا ، يسترخي في ظل سور ليحلم بأمنيات طالما رغب في تحقيقها لابنه ولزوجته ، غير ان شاحنة تنحرف عن الطريق العام ، وتقتحم الجدار لتقتلعه ، كأن القدر بالمرصاد يسحق الضعفاء ليمنع عنهم حتى نشوة الاحلام ، واتت جملة الكاتب الاخيرة « لكن احلام الرجل استمرت في التدفق » بمثابة تعويض عن قساوة الصدمة

وتدخل اقصوصة « الولد » في التيار ذاته ، فهي عبارة عن صورة لزوجين حرما من الاولاد ، فيحاولان تعويض ذلك باحلامهما ،ويتمثلان الحلم حتى يكاد ان يصبح حقيقة يفجران فيها كل العاطفة والحب والحنان الذي يفتقدانه ، ويعيشان غبطة تكاد تكون حقيقة حتى

يتعبا ، فيرجعا من جديد الى حزنهما القديم .

اما في « زهرة البنفسج » فتتهدم الحواجز بين الواقع والحلم لترسم لنا مأساة عانس في الثلاثين من العمر ،لم تعرف معنى الحب ، فتجد في الاحلام خلاصا لها من غربتها ، وملاذا لها من صقيع حياتها وقحطها . وما الربيع في الاقصوصة سوى رمز للخصب ، هذا الخصب الذي طالما تاقت اليه وعجزت عن تحقيقه ، فعاشت في الوهم وماتت فيه . ولم يعرف الناس الحقيقة الا بان جثة فتاة وجدت على سطح مياه النهر ، وما البنفسجة التي ظلت عالقة في شعرها سوى رمز لتوهج طلب الحياة الذي لم يمت بموت الفتاة .والاقصوصة بمجملها طرح شاعري شفاف لوحدة فتاة ، وبحثها عن افق تفجر فيه كبتها وحرمانها ، فلا تجد سوى الاحلام ملجأ .

و « حوار مع الورد الابيض » اقصوصة من نفس نوع الاولى ، اذ تطرح مشكلة خلافات الازواج وانعكاسها على الاطفال . فيروح الطفل يبحث عن مخرج لانقاذ والدته التي يحبها ، ووالده الذي يقسو عليها ، ويأتي الحل مغلفا برؤيا سحرية ، فتستطيع وردة بيضاء ان تعيد النضارة للزوجة والحنان الى قلب الزوج ..

ولقد جمعت « نجمة الصباح » الى جانب هذه الرؤية السحرية حسا جديدا بالواقع . ومن خلال تقاطع هذين الخطين يطرح الكاتب اشد قضايا الانسان تعقيدا ،وهي الموت .

طفل يتساءل عن والده الذي مات منذ زمن ،وأم تداري الحقيقة بأوهام ، تحاول من خلالها ان تخفف من قساوة الواقع .

غير ان الطفل يعيش الوهم ويندو معه ، فيحلم بأبيه وقد عاد واشترى له ما يشتهيه ، وكما قالت له امه ان والده سافر الى نجمة مضيئة بعدما ملّ حياة الارض ، فهو يجلس بانتظاره كل مساء ليشهد في ليله موت الحلم اذ شاهد النجمة تحترق وتهوي ، فأيقن ان اباه لن يرجع بعد اليوم .

اما « العصافير » فهي مقطوعات يرجع تاريخ كتابتها الى فترات زمنية متباعدة ، تمتد من عام ١٩٦٣ حتى ١٩٧٤ ، وعبرها ينقلنا الكاتب الى عوالم جديدة ، عالم العصافير (او الحرية والعودة الى منابع الفطرة في الحياة) وعالم الطفولة (عالم البراءة والعذوبة والحب المطلق) ،الى جانبها عالم المدينة الذي يفترسهما شيئا فشيئا عبر المقطوعات السبع ، فنشهد كيف يحبط عالم المدينة طفولة الاشياء ، وكيف يقيدها ، ويعمل على اسلابها حتى يعزلها ويقضي عليها (الصورة الاخيرة لعصفور طريد الشتاء يحاول الدخول الى غرفة دافئة فيها رجل وامرأة داخلها ، « حاول العصفور ان يلفت نظر الرجل والمرأة ، فتشبث بطرف النافذة واخذ يرفرف بجناحيه البليلين ، تطلعا اليه هنيهة ، ثم عادا يتابعان الحديث فيما بينهما دون ان يتحركا » .)

انها شهادة لاحتضار البراءة والعذوبة في مجتمع هذا اليوم ،وهي باختصار مسيرة عذاب الانسان في عالم المادة . انه الحنين الجارف الى عالم الصفاء حيث لا قيود ولا عذاب انما حرية مطلقة وصفاء مطلق .

يتميز اسلوب الكاتب في اقاصيصه هذه بالشاعرية الرقيقة .يقول في « زهرة البنفسج » : « قفز العصفور فتساقط عليه ورق الزهر كندف من الثلج . كانت الحقول تموج ، وكان الربيع يزرع قلبه في كل شجرة طرية لكن صمتا حزينا لف العالم من كل جوانبه ».

والشاعرية رديف اساسي لعالم الحلم الذي يعبر عنه ياسين رفاعية الذي هو عالم رمز بعيد عن الغرابة ، وعندما يغمض الرمز ، يحاول الكاتب توضيحه دون ان يقع في التفصيل ، والسرد الاخباري .فكانت اقاصيصه رؤى عذبة تستثير عاطفتك وخيالك دون ان تتحداهما .

٢ ـ اما الاتجاه الثاني لاقاصيص المجموعة فهو اتجاه الطرح الحاد شبه الملتزم بمعضلات الانسان الاولى . الفقر ، الجوع ،العنف. لذا اختلفت الرؤية في « رباعية الجوع » وانحسرت الشاعرية الشفافة امام وطأة الاحساس الحاد بوطأة الحياة وظلم الظروف الاجتماعية ، وتحكم القوة والاستغلال بمصائر الضعفاء .

وفي اقاصيص الرباعية « الله والسمكة » و « المارد » عودة واضحة الى عالم الاسطورة في الف ليلة وليلة .فاولا دالفقراء يدعون الله ان يبعث اليهم برزق ، فيقذف البحر لهم بسمكة كبيرة ، لا يلبث ان يسطو عليها بعض اللصوص ، ليتركوا الاولاد في حيرة وذهول. اما مارد الفانوس فيرفض في « المارد » الاستجابة لطفل جائع كل ما يريده الحصول على رغيف خبز فيحرق نفسه . فالاسطورة هنا مفجعة لا تحقق اماني المحرومين ، ولا تعوض عن حرمانهم ، انما تزيد الشقة والتناقض فيما بينهم وبين الحياة .

اما في اقصوصة « ابو ذر الغفاري » (والشخصية مشهورة في التاريخ الاسلامي علينا ان نكشف عن رمزها الخفي) نشهد حماية المجنون للجائع ضد عالم الاقوياء .

اما في « الكلب » فتتجسد قصة الصراع الطبقي ، وتتبلور المأساة في اوجها : كلاب تأكل حتى التخمة ، وطفل يشتهي ان يكون كلبا كي يحظى بلقمة تسد جوعه ، وفي الاقصوصة احساس حاد بالمأساة، وطرح شبه مأساوي للظلم الاجتماعي والقهر الذي يحول الانسان حيوانا يبحث بلا جدوى عن شيء يشبع جوعه والمه .

مع هذه الاقاصيص تبرز خاصية جديدة للكاتب ، ففي « رباعية الجوع » يتحدث الشاعر بلسان المعذبين ، ويرسم آلامهم بصدق وواقعية ،تجعل من عالم اقاصيصه عالما كابوسيا .

وهو يصور فيها الشقة المظلمة من وجه الحياة ، والآهة المكبوتة في نفوس الكثيرين ، يفجرها في كلماته ، لكنه لا يجد لها املا بالخلاص ولو ضئيلا ، جميع شخوص رباعيته يسحقهم الجوع ، ينتصر عليهم الشر ، وتقضي عليهم كلاب الاغنياء .وربما التزام الكاتب الكامل للحقيقة الماثلة جعله غير قادر على تحطيم قيود العجز ، وفتح ابواب جديدة للخلاص . وبكلمة موجزة تنهض « رباعية الجوع » لتصل الى مستوى رفيع من الاداء الفني .

٣ ـ اما الاتجاه الثالث الاخير فهو اتجاه نقل الواقع والسرد الاخباري المباشر ، ويقع في هذا المضمار ما تبقى من اقاصيص المجموعة، وهو يكشف لنا عن مزية هامة لدى ياسين رفاعية ، الا وهي اخلاصه للواقعية . ويبرز من بين هذه الاقاصيص « الحصاة » وهي تحمل حنين الكاتب الدفين الى موطنه دمشق ، والى ذكريات ما زالت حية في روحه . والثانية « الموت » وفيها يحاول نقل لحظة احتضار لميت، تحمل امنية خفية اراد الكشف عنها ، وتغذي هذه الاقصوصة احساسا من التوتر الحاد الغامض ، وتكشف عن قدرة الكاتب على تمثل ما هو سريع وعارض (لحظة الموت) في هذا الشكل المتأني من النقل المتوتر .

وياسين رفاعية في اقاصيصه هذه ، يقترب كثيرا من عالم زكريا تامر ، غير أن الاحلام مع زكريا تامر تنقلب الى رؤية كابوسية حادة ، لتكشف عبث الحياة ووحدة الانسان وغربته في هذا العالم .

غير ان الكاتبين يلتقيان في الرموز الطفولية للاحداث فيشكلان في هذا المجال مدرسة جديدة للقصة تنطلق من الواقع نحو اللاواقع في محاولة لطرح جديد لانسان شرقنا ولمشاكل حاضره .

رندة حيدر